

تكوين الفكر العربي قبل الإسلام

من اللغة -

الدكتور رشاد محمد خليل

(I)

مقدمة :

وهو تعريف يشير الى الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية من ناحية كما يشير الى وظيفة اللغة الاجتماعية من ناحية أخرى .

فدراسة اللغة في ذاتها تعنى دراسة بنيتها من جوانبها الصوتية والتركيبية والمعجبية .

ودراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع تعنى دراسة علاقة اللغة بالجوانب الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية في مجتمع بعينه من ناحية ، ومدى تأثير هذه الجوانب على بنية اللغة وتطورها من ناحية أخرى (1) .

وقد درست اللغة العربية قديما دراسة مستفيضة من حيث بنيتها نحوا وصرفا وتركيبا ومعجبا ، ولكن دراسة بنيتها في ضوء علوم اللغة الحديثة ما زالت متعثرة ، تقوم على بعض الجهود الفردية المتناثرة هنا وهناك ، كما تقوم على الاجتهادات الفردية ايضا ، ويمكن القول ان دراسة اللغة العربية دراسة حديثة نحوا وصرفا وتركيبا ومعجبا لما تكذب تبتدا ، لان محور

تدرس اللغة اليوم على اساس انها ظاهرة اجتماعية وقد دخلت في مجال الدراسة الاجتماعية باعتبارها جزءا من علم الاجتماع العام ، وانشيء لدراستها فرع خاص في علم الاجتماع يدرسها على اساس انها ظاهرة اجتماعية ، ويسمى هذا الفرع (علم الاجتماع اللغوى) .

كما تدرس في نفس الوقت على انها ملكة انسانية ، وقد دخلت بهذا الاعتبار مجال الدراسات النفسية ، واصبحت لدراستها جزءا من علم النفس العام ، وانشيء لدراستها فرع خاص في علم النفس يدرسها على اساس نفسى ، ويسمى هذا الفرع : (علم النفس اللغوى) .

ويعرف اللغويون المحدثون اللغة بأنها « نظام من الرموز الصوتية يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ،

(1) اللغة العربية عبر القرون ، محمود حجازي ص 4

الدراسة لما يزل عرضا للدراسة القديمة ، او نقدا لها او دفاعا عنها ، وذلك في الاعم الغالب .

لا يفكرون في ضم الجمل نفسها بعضها الى بعض ، فأسلوبهم كما يقول أرسطوطاليس هو الاسلوب اللانهائي ، الذي يتبع طريقة الجزئيات المتراكمة التي تتعارض والجملة الكاملة في تجانسها والمعروفة في اليونانية واللاتينية ، فالشيء عندهم في البلاغة ، كما هو الحال في المعمار ، هو الزخرفة المرينية المعروفة (6) .

اما دراسة اللغة العربية في علاقتها بالمجتمع باعتبارها ظاهرة حضارية فانها تكاد تكون في حكم المدومة ، وأقول في حكم المدومة لان الدراسات التي تناولت اللغة العربية كظاهرة حضارية لم تكن دراسات بالمعنى العلمي ، وانما كانت في العديد منها ستارا علميا يراد من ورائه تصوير العرب بصورة المتخلفين عقليا وحضاريا ، ثم تأييد هذا التصور بجملة تكويننا أساسيا يظهر أثره في تركيب لغتهم ويفسر بطبيعة الجنس حيناً وجبرية البيئة حيناً لكنه ايا كانت التفسيرات لا يصدق عليهم وعلى لغتهم كيفما كانوا ، وصف التخلف .

ويكرر جوتيه نفس الإنكار تقريبا ولكنه يفسرها بالجبرية البيئية بدلا من طبيعة الجنس ، فالذي يميز الشعب العربي هو « تفصيل الطرفين ، وقرن الأضداد ، والمتشابهات بالاولى ، والانتقال من هذا الى ذاك انتقالاتا فجائيا أما المميز للمعبرية الآرية فهو التقريب التدريجي بين الأضداد ، ووصلها بعضها ببعض وصلا متناسقا بفضل ما يضمه بينها من الاطراف الوسطى المختارة بمهارة فهو الوحدة في الاختلاف ، وهو الشعور بالتنوع والتدرج المتوالي داخل سلسلة منسقة تنسيقا منتظما (7) .

ومما هو جدير بالاسف حقا أن هذه الدراسات المشبوهة قد أثرت في الفكر العربي الحديث تأثيرا عميقا ، وظهر هذا الأثر في كثير من الأبحاث العربية التي اعتبرت نتائج هذه الدراسات مسلمات تنطلق منها أبحاثهم .

أما أولري فيرى انه مما لا فائدة منه أن تدعى أن تاريخ الفلسفة العربية يرينا ضمنا في أصالة العقل السامي ، لسبب واحد هو أننا لا نجد واحدا من فلاسفة المرتبة الاولى بعد الكندي عربيا بمولده ، وتقليل منهم يمكن أن يوصف بأنه سامي وقد يكون أكثر دقة أن نقول أن الفلاسفة الاغريق قد تفردوا حتى وقت متأخر جدا بمحاولة أي شيء يصدق عليه أنه دراسة نفسية علمية (8) .

ومن أمثلة هذه الدراسات التي تنتهي الى أحكام تطمية متمضة ، ما ذهب اليه رينان من أن « الجنس السامي اذا قوبل بالجنس الهندي الاوربي يعتبر حقا تركيا أدنى للطبيعة الانسانية » (2) « فالدين واللغة عندهم لم ينشأ بجهد عقلي .. وليس هناك شيء يخترع » (3) والوجدان السامي « واضح لكنه محدود » (4) والاسلوب السامي ينقصه نقصانا تاما الرؤية عن بعد ، وذلك بأن اللغات السامية مبسطة بسطا ، ولا تأخير فيها ولا تقديم ، فهي لا تعرف من طرائف التعبير غير قرن الإنكار بعضها ببعض » (5) « انه ينقص الساميين عامة احدى درجات التراكيب التي نعتبرها ضرورية للتعبير عن الفكر تعبيرا كاملا ناقص ما يعنون به ضم الكلمات في جملة واحدة ، وهم

ومن أمثلة العرب من معاصرنا الذين أخذوا هذه الأحكام المعتسفة مسلمات بنوا عليها دراستهم هو أحمد أمين فهو يردد أن « الخيال العربي ، محدود غير متنوع » أما عقليته فتمتيز « بعدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمطلوب ، والسبب والمسبب فهما

- (2) المدخل ص 63 .
- (3) الفكر العربي في التاريخ ، أولري ترجمة تمام حسان ص 150 ، 151 .
- (4) فجر الاسلام ، أحمد أمين ص 39 .
- (5) فجر الاسلام ص 42 .
- (6) فجر الاسلام ص 42 .
- (7) المدخل ص 63 .
- (8) الفكر العربي ومكانه في التاريخ ، أولري ترجمة تمام حسان ص 150 و 151 .

طبيعة العقلية العربية تبيل الاسلام ، ليس مصدرها المستشرقين ولم تكن على اساس من الدراسة اللغوية وانما مصدرها علماء ومفكرون مسلمون ساقوها في معرض الدفاع عن الاسلام وابرار فضله على العرب ابتداء من ابن خلدون الى محمد عبده وعباس العقاد ومحمد البهي ومحمد حسن الباتورى . فابن خلدون يذهب الى ان جملة العرب كانوا « اهل بنى والحداد . وقطع للارحام ، وتنافس في الردى ، وأعراض عن ذكر الله ، فكانت عبادتهم الاوثان والحجارة ، واكلهم المقارب والخنافس والحيات والجعلان وأشرف طعامهم اوبار الابل اذا امروها في الحرارة في الدم ، واعظم عزهم وفادة على آل المنذر وآل جفنة ، وبنى جعفر ونجعة من ملوكهم ، وانما كان تنافسهم المؤودة والسائمة والوصيلة والحامى » (14) .

ويرى محمد عبده انه « قد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا فيه اصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا اكلوها ، وبلغوا من تضعف الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، او تنصلا من نفقات معيشتهم وبلغ الفحش فيهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة » (15) .

وهو يرى ان الاسلام جاء قوة في قلب الضعف ، وسلطانا في مظنة المعجز وعلما في وسط امية ، ورشادا في غمرات الجاهلية (16) .

اما العقاد فيذهب الى ان حرية العرب تبيل الاسلام « هي حرية مصدرها كمصدر الحرية التي تتمتع بها الاوابد في الخلاء ، او تتمتع بها الطير في الهواء وعلتها انها حرية مصدرها قلة المنازعة عليها لا قوة المبادئ التي تدعها وتحميها ، فليست هي حقا من الحقوق ، ولكنها مال همل مباح لقلّة الراغبين فيه ، وغنية المنتفعين باليعدوان عليه » (17) ويقول « نشأت

تاما » (9) « وطبيعة العقل العربي لا تنظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة ، وليس في استطاعتها ذلك » (10) « ونظرتة سطحية اذا نظر الى الشيء الواحد لا يستغفقه بفكره » (11) « فالعقل العربي تركيبى لا تحليلى ، وانه يعنى بالجزئيات ولا يحفل بالكل ، وهو لذلك عرف أدب المثل ولم يعرف القصة ، والفرق بين التركيب والتحليل يتضح في هذين النوعين من الانواع الادبية . فالمعنى الكبير يمكن تركيزه في المثل الذى لا يتجاوز السطر ، وهذا المعنى نفسه يمكن ان يصور في قصة طويلة ، المثل عملية تجريد وتركيب ، ونسى القصة على العكس يحدث تشخيص وتحليل وتفصيل » (12) ثم يفصل القول في تطبيق هذه الاحكام على لغة العرب وآدابهم .

وأحدث الدراسات التى تابعت نفس الاتجاه دراسة عز الدين اسماعيل في كتابه « الاسس الجمالية للنقد العربى » فقد ردد فيه نفس الإنكار عن النظرة الجزئية ، والعقلية التركيبية ، وفسر ذلك بالحرارة والمناخ ، والدائرة المغلقة في الصحراء ، فالحرارة والمناخ يفسران ظاهرتى الثبات على التقاليد والتكرار ، والصحراء والحرارة ودائرة الامق المغلقة تفسرهما ايضا وتفسر معهما الشعور باللامحدود واللانهاى ، كما تفسر لنا وحدة البيت في القصيدة ، وتفسر تفكك القصيدة كما ان طبيعة العقل العربى التركيبية تفسر لنا اهتمامه بالبيت الواحد دون القصيدة والنظرة التجريدية في طبيعة هذا العقل تفسر لنا عدم عنايته بالتفصيلات واكتفائه بالخطوط الاساسية ، بل ان من دلالات النظرة التركيبية في طبيعة العقل العربى ما عرف من قدرته على اللحمة الفكرية دون الفكرة الكلية (13) .

على ان هناك ايضا احكاما قطعية تعسفية على

(9) فجر الاسلام ، احمد امين ص 39 .

(10) فجر الاسلام ص 42 .

(11) فجر الاسلام ص 42 .

(12) فجر الاسلام ص 61 .

(13) انظر الاسس الجمالية ص 283 الى 288 ، ص 279 الى 282 .

(14) تاريخ ابن خلدون ج 2 ص 167 - 168 .

(15) رسالة التوحيد ، محمد عبده ص 180 .

(16) نفس المصدر ، ص 191 .

(17) الديمقراطية في الاسلام ، العقاد ص 27 - 28 .

العربى من خلال تراثهم اللغوى ، وذلك لتبين وجه الحق فيما ذكره مستشرقون وباحثون عرب ومسلمون عن طبيعة العقليّة العربيّة ، وطبيعة اللغة العربيّة ، ولتكشف المناخ الفكرى الذى ظهر فيه الإسلام من ناحية ثانية ، ولتكشف الأساس الفكرى الذى يقوم عليه بناء اللغة العربيّة وتركيبها من ناحية ثالثة .

افعل ذلك اقتناعاً منى بأنه من أوجب الواجبات علينا فى هذه المرحلة الدقيقة من تريخ امتنا ، أن نعيد النظر فى التصورات المقررة حالياً لتاريخ هذه الأمة وحضارتها وفكرها ، حتى نعرف أنفسنا معرفة دقيقة ، لا تنهض على أساس من أفكار وآراء ومسلّمات بنيت على دراسات سريعة غير مستوعبة وتقوم على سوء الفهم أو سوء النية .

وافعل ذلك اقتناعاً منى بأن كشف مناخ الإسلام جزء أساسى من فهمه ، والإسلام وهو دين الله الحق ، لا يقلل من مكانته ، ولا يهون من شأنه قط ، ان تظهر الدراسة العلميّة أن القوم الذين ظهر بين ظهرائهم كانوا أهل فكر مستنير ولعلّ العكس هو الصحيح لانه قد يفسر لنا أشياء فى حركة الإسلام وانتشاره ما تزال مستعصية على التفسير .

وافعل ذلك اقتناعاً منى بأن فهم الأساس الفكرى للبنية اللغويّة ، ضرورى لفهم أسلوبها وطبيعتها تراكيبيها ويعين من ثم على تحديد الأسلوب السليم الذى تتطور به وتنمو وتتجدد فى إطار تركيبها الأساسى، وفى ضوء خصائصها الذاتية .

وقد بنيت هذه الدراسة على أساس من دراسة تاريخ اللغة وتطورها لكشف مدى أصالتها ومدى عراقّة الفكر العامل فيها ، ثم دراسة بعض الخصائص ذات الدلالة المحددة على طبيعة الفكر ومستواه من جهة ، وذات الدلالة على أسلوب اللغة ومنهجها فى البناء والتطور والنمو ، ثم دراسة تطبيقية على الشعر القديم (الجاهلى) لمابعة أطراد الظواهر اللغويّة ، وأسسها الفكرية فى أساليب التعبير الفنى شكلاً ومضموناً يضاف الى ذلك دراسة معجمية للشعر القديم

الدعوة الإسلامية فى بيئة مريضة بأدواء العصببيات وضروب الضلال فى اختلاط العبادات والخرافات فلو جرت الأسباب التى تتركها فى مجراها المعهود ، فالدعوة التى تأتى من قبل هذه البيئة لن تدعو الى اله واحد يتساوى لديه جميع الناس ، ولن تمنح الإنسان حقاً واحداً يتساوى فيه جميع الناس « (18) .

ويذهب محمد البهى الى أن العرب قبل الإسلام كانوا قوماً أميين فى ضلال مبين ، وانهم لم يكونوا أصحاب حضارة (19) .

أما الباتورى فيذهب الى القول بأنه فى جزيرة العرب « عاشت أمة جاهلية فكانت فى جملتها أذلّ الناس ذلاً ، وأشقاهم عيشاً ، وأبينهم ضلالاً ، وأعراهم جلوداً وأجوعهم بطوناً ، معكومين على رأس حجر ، بين الاسدين فارس والروم . . والله ، ما نعلم أمة فى حاضر الأرض كانت أصغر حظاً وأدق شأناً منهم ، حتى جاء القرآن فنقلهم من الذلّة الى العزة ، ومن الشقاء الى السعادة » (20) .

وليس بهم فى ميزان العلم الصحيح ان تصدق هذه الاحكام على عقليّة العرب ولغتهم أو لا تصدق ، وانما المهم بمقياس العلم الصحيح ان تصح هذه الاحكام أو يصح غيرها نتيجة دراسة منهجية دقيقة غير متحيزة ولا متحاملة للتراث الوحيد الذى خلفه لنا هؤلاء القوم محط الحكم والتقدير - وهو اللغة ، فاللغة وحدها هى كل ما خلفه هؤلاء الناس من تراث ، اذ لم يتركوا لنا أثراً باقياً مما يعتده المؤرخون من وثائق معتمدة للبحث التاريخى مثل الاوراق والبرديات والنقوش والعمائر ، والتماثيل . . الخ . هذه الوثائق .

واقصد بالعرب الذين ظهر الإسلام بين ظهرائهم، لا أصعد فى تاريخهم جنوباً الى حضارات اليمن ، ولا شمالاً الى حضارات الشمال أقصد عرب الحجاز ونجد بالتحديد ، فلغتهم هى التى بقيت لنا ، وهم الذين قدموا لنا الإسلام .

ومهمة هذا البحث هى الكشف عن تكوين العقل

(18) عبقرية محمد العقاد ص 24 .

(19) الفكر الإسلامى الحديث ، البهى ص 223 - 224 .

(20) أثر القرآن فى اللغة العربيّة ، الباتورى ص 9 .

الدراسة ، فانها ضرورية ليس فقط لبيان وجه الحق في طبيعة اللغة العربية والعقلية العربية بل للكشف كذلك عن اصالة الفكر العربي ، واصالة منابعه ، واصالة مناهجه ، وطبيعة الدور الذي اداه للانسانية عبر التاريخ .

• وعلى الله تصد السبيل •

رشاد محمد خليل

(الجاهلى) حول قضايا الفكر الاساسية وهى :
الله ، الوجود ، النفس ، الاخلاق — مع مقارنة تصور الفكر العربى لهذه القضايا بتصور الفكر الاغريقى والمدارس التى تأثرت به على طول تاريخ الفلسفة القديمة قبل الاسلام ، ثم بيان موقف الاسلام من التصور العربى فى هذه القضايا .

وفى ضوء هذه الدراسة الشاملة المتكاملة يمكن فقط الحكم على اللغة العربية والعقلية العربية بمنطق العلم وموازينه . وايا كانت الصورة التى تكشف عنها

